سائل حاج

٣ - من ربوع الغرب إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى

الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

وكنت لا أزال منزوياً فى مقدم الباخرة ، حينما أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن هذه البقاع الاسلامية المقدسة ، فاذا « بجدة » تسمو فى السماء اللازوردية ، بينما تتراءى أمواج البحر على أقدامها ، تشقه عشرات البواخر والزوارق فى حركة متواصلة ، يتصاعد منها صخب داو اختلطت فيه كافة لغات الشرق ، فأعادت إلى ذهنى المكدود بابل بأسواقها وشعوبها ، إلا أن المدينة الخالدة كانت تبدو فوق هذه الحياة اللاغطة ، كأنما تسمو خلوداً فوق مظاهر مدنيتنا الحديثة الزائلة وقد برزت منها مآذن فى دقة الحراب وقباب كانت شاحبة البياض قبل أن يدنسها دخان بواخر الغرب فكانت ترسو فى ظلها المراكب الشراعية حاملة طوائف المسلمين من الهند وجاوة وسومطرا والصين وشواطىء أفريقيا

واقترب الصباح فاستعد الركاب للنزول وبدأوا يستقلون الزوارق الخفيفة ، وكان النساء يرتدين تلك الملابس البيضاء ، سافرات الوجوه ، لا يجرؤ أحد على أن يتطلع اليهن بنظرة ، ومن ذا الذى فى قلبه مرض فينظر اليهن فى هذه الساعة الرهيبة نظرة اشتهاء ؟ وفى الواقع أن الجاذبية الجنسية كانت منعدمة تماماً ؟ وقد أبعد الحجاج عن خواطرهم شتى صور الحياة حتى لا يحول شىء بينهم وبين الوصول بقلوبهم إلى نور الله الواحد القهار

وكان على الشاطىء حشد من الحمالين والمطوفين ومراقبى جوازات السفر وفريق من موظفى الحكومة لجباية الضرائب وهم جميعاً يتكلمون لغات شتى . فما إن يهبط عليهم أحد الحجاج حتى يلتقطه المطوف ويقوده إلى الموظفين المختصين وبعد إتمام الاجراءات الرسمية يصحبه إلى المسكن المعد لاقامته

وجاء دورى ، فلما مثلت أمام مراقب الجوازات تطلع إلىّ وسألنى عن جنسيتى فأجبته : من بلاد المجر ... عند ذلك أظهر ارتياكا ، إذ لم يسبق له أن سمع قبل اليوم ببلادنا ؛ وأخيراً أسر إلىّ بأن مسألتى من المسائل التى يبت الأمير فيها بنفسه . وأشار إلى أحد رجال الشرطة وأمره بأن يقودنى إلى دار الأمير لأنه هو الذى بيده سلطة التصريح لى بالسفر إلى مكة . وكانت دار الأمير تبعد عن الميناء مسافة لا تقل عن نصف ساعة سيراً على الأقدام . ولتبيت الأمر فسرت مع ذلك الشرطى نتجاذب أطراف الحديث فى طرق معبدة ملساء ، غير أنه كان من سوء حظى أن أحد مسامير الخف الذى كنت أنتعله ، برز من موضعه ودخل فى قدمى فأحدث لى ألماً شديداً ظل أثره أياماً طوالا

وما إن انتهت مقابلتى للأمير ، وقد استغرقت نحو ساعة ، حتى عدت إلى الباخرة ، وكنت قد نسيت أنى تركت أمتعتى فى الزورق البخارى ، ولقد كان أسفى لضياعها عظيما ، وكم عنفت نفسى لوقوعى فى مثل هذا الاهمال الذى كانت نتيجته ضياع الأمتعة بما فيها الكتب ! وكدت أقطع الأمل من العثور عليها ، ولكن الله سلم ، فان النظام المحكم الذى يقوم به رجال الشرطة فى الحكومة السعودية أتاح لى أن أعثر عليها بسهولة فى إحدى قاعات الجمرك وعليها بطاقة باسمى . وبعد ساعة قادنى المطوف إلى دار الأستاذ محمد ناصيف الذى كنت أحمل اليه كتاب توصية ، وما كاد يتلوه حتى رحب بى على طريقة العرب فى شوق وترحاب ، وغمرنى بكل صنوف الكرم التى لن أنساها ؛ وتلك لعمرى إحدى مفاخر الاسلام التى تتجلى عظمتها فى كل مناحى الحياة

والأستاذ محمد ناصيف فوق أنه من سراة الحجاز رجل مثقف ثقافة عربية ناضجة ، وتضم داره مكتبة زاخرة لا يكاد الانسان يرى مثيلها فى بعض الأقطار الأوربية أو الآسيوية ، وله رفاق يلتفون حوله كأسراب الطيور ، ليلتقطوا من حديثه الشهى الحكم البالغة والآيات البينات

* * *

تبعد جدة عن مكة بمسافة ٧٩ كيلو متراً ، وتشبه مبانيها الاستحكامات العسكرية ، ودورها مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً ، وهى

مكونة من جملة أدوار ، بينما تتوج جدة قباب المساجد المقدسة ، واسمة إياها بذلك الطابع الفريد الذى يميزها دون سائر مدن العالم

ومن الغريب أن قناصل الدول والوزراء المفوضين يقيمون فى جدة دون أن يتخطوها إلى داخل الأراضى المقدسة ؛ ويستحضر رجال الهيئة السياسية طعامهم من الخارج ، حتى الماء يجلبونه من مصر ، لأن مياه جدة أجاجية غير صالحة للشرب

وتستقبل أسواق جدة عادة زبائن من كافة بقاع العالم ، ولا يفتأ تجارها يستحضرون أنواعاً من السلع لا تناسب بيئتها مطلقاً ، بل هى خليط من أذواق مختلفة ومشارب متباينة

وبعد أن قضيت فى ضيافة الأستاذ محمد ناصيف بضعة أيام صدرت الأوامر بالسماح لنا بالسفر إلى مكة . والواقع أن الفترة التى قضيتها فى دار ذلك الشيخ الجليل دفعتنى إلى الايمان الشديد بأن الفوارق الجنسية لا أثر لها مطلقاً فى الاسلام ، بعكس ما نشاهده فى الحضارة الأوربية من الاشادة بالقوميات والعصبيات وغيرها من المشكلات الاجتماعية التى تثيرها روح التعصب الأعمى . وصادف أن رافقنى فى السيارة إلى مكة خمسة عشر زنجياً من أهالى الصومال ، وكنا فى خلال الطريق لا ننقطع عن أن نهتف : لبيك اللهم لبيك ! وهنا يجدر بى أن أنوه للمرة الثانية بعظمة الاسلام التى تتجلى فى عدم التفرقة بين الكبير والصغير والرئيس والمرءوس ، فالكل سواسية ؛ وقد شعرت بتلك الحقيقة وأنا بصحبة هؤلاء العبيد الفقراء ، وقارنت بين ذلك وبين الفروق الشاسعة فى أوربا الموجهة نحو احتقار العناصر الضعيفة والتفرقة بين الألوان

كانت السيارة تنطلق بنا فى طريق ممهد لا يمله النظر فى كل جزء من أجزائه ، طريق سلكه قبلنا ملوك وعظماء وأنبياء منذ مئات السنين ، وكانت السيارة كلما مرت بقافلة من القوافل نظر الأعراب إلى تلك الآلة الجهنمية التى تنبعث منها أصوات منفرة وروائح كريهة ، فى شىء من الحنق والغيظ . فقد أصبح النقل اليوم فى أكثر طرق الحجاز بالسيارات تمشياً مع مقتضيات الحضارة الحديثة ، مع أن البدو كانوا يربحون الشىء الكثير من نقل الحجاج بالابل ، وكانت النقود التى تدفع إليهم تبقى فى حوزتهم ، أما السيارة فان ثمنها وأثمان وقودها وقطع تغييرها تتسرب الآن إلى خارج البلاد ، فلا عجب إذا نظر إليها البدو شىء من الحنق ونقموا على من كانوا سبباً فى إدخال تلك « ا الجهنمية » إلى الصحراء ، وهم يقولون إن الانسان يجب يركب فى سبيل الحج أشق الأمور ، فلا يخال نفسه ذاهبا سياحة هادئة ، ويتذرع بوسائل الراحة والرفاهية مما يلقا السيارة ؛ وبمقارنة الابل بالسيارة ، نجد أن للأولى قوة اح على الجوع والعطش ، بعكس السيارة التى تحتاج إلى تجديد ا كل أربع ساعات ، والوقود كلما نفد ، فضلاً عن جهل الس بميكانيكيتها مما يسبب عطلها فى الطريق وترك الحجاج فى ال إلى أن تقدم سيارة أخرى

أجل ! لقد أزعجت السيارة ذلك الهدوء الشامل فى الصح وأقضت مضاجع الأعراب وحولت طمأنينتهم إلى نوع الثورة على الحضارة الأوربيـة وما تقدمه إليهم من كم وطيارات ولاسلكى

دخلت سيارتنا مكة فى منتصف الليل تقريباً فراعنى أن أ الناس فى الشوارع ، يغطون فى نومهم ويحلمون بالجنة التى هم موعودون ، لاسيما وأنهم أصبحوا على قاب قوسين منها . أه هذا المنظر خاطرى فانبثق فى نفسى شعور خفى وأنا أستقبل ت الأرض المقدسة التى وطئها قدما الرسول وكانت خير مد للحق ، فهدت الناس إلى السبيل القويم

وقصدت لساعتى إلى دار مطوفى ، وهى دار رحبة عا البنيان ، بها غرف فى الدور الأسفل أعدت لاستقبال الحج الجدد عند وصولهم إلى مكة . وبعد أن رحب بى المطوف سأ عما إذا كنت فى حاجة إلى طعام أو شراب فأجبته بالنفى ، كنت لا أزال غارقاً فى تيار من الأحاسيس الخفية ، معا النفس بقرب بزوغ النهار للطواف بالكعبة المقدسة

وما إن غشيت غرفتى واستلقيت على البساط حتى أغمض عينى واستولى علىّ النعاس ، فتجليات الرسول الكريم وقد أمامى فى شكل نورانى ، يكاد يخطف الأبصار ، وكأنما هو ينث كلمة الله فيضىء بها العالم يدعو الخلق إلى كلمة الحق ، ورأيـ الخلفاء الأربعة يتوسطون حلقات من الناس طبقاً لقواعد الد الحنيف ، ويسودون العالم بالحكمة والمحبة لا بالعنف والشدة

م تخيلت هارون الرشيد وهو يجول آناء الليل فى شوارع بغداد يجوس فى خلال أزقتها ودروبها ، فيكافئ الأتقياء وينزل قوبته بالمجرمين ، وانبسطت أمامى بلاد الأندلس الزاهرة وقد سادها حكم العرب ، فنشروا بين ربوعها العلم والحكمة والفلسفة الفلك والفقه حتى أصبحت هـــذه العلوم كشجرة مباركة رعها فى السماء ، وأظلت بأوراقها اليانعة الخضراء نجاد مكة لمكرمة والكعبة الشريفة ؛ ولا يظن أحد أن ما شهدته كان من قبيل الرؤيا أو أضغاث أحلام ، بل هى أشباح خالدة تطوف بذهن كل مسلم صادق العقيدة متوجه إلى الله بقلب نقى طاهر

وعند انبثاق الفجر نهضنا من النوم على أصوات ملائكية ، كأنها هابطة من السماء ، تلك هى أصوات المؤذنين يدعون المؤمنين إلى صلاة الفجر التى هى خير من النوم ، فقمت مهرولا ، وبعد أن توضأت يممت شطر المسجد الحرام ومعى مطوفى ، وكنت أؤدى الصلاة المفروضة طبقاً لارشاده ، ثم بدأت أطوف بالكعبة فسرنى أن رأيت الوفا من الحجاج ، من كافة الألوان والأجناس ، يقبلون فى لهفة على لثم الحجر الأسود ، وهو رمز تاريخى للاسلام ، كان الرسول الكريم يتبرك به ويقبله ؛ وتبعه فى ذلك الخلفاء الراشدون ، وظلت تلك العادة متبعة للآن ؛ ولقد حاولت مرارا أن أقترب منه فكان يصدنى عن بلوغه كثرة الزحام ، وبعد مشقة لمست بيدى سطحه الرمادى الأملس ، ولكن ما كدت ألثمه حتى رأيت سيدة من أهالى فرجانة تقع على الأرض إثر صدمات عنيفة من الخلف ، وكانت تحمل على ظهرها طفلتها المسكينة التى ستصبح حاجة بعد حين ، ولقد قدمت هذه المرأة التقية إلى الحج ممتطية صهوة جواد مع بقية أفراد أسرتها ، من بلدها فى أواســـط آسيا فاستغرق سفرهم أربعة أشهر ؛ ولقد أخبرتنى هذه الحاجة أنها كانت تدخر لهذه الزيارة المقدسة من سنوات بعيدة ، وأخيراً حققت حلمها وكانت مبتهجة أشد الابتهاج

وقمت بعد ذلك للسعى بين الصفا والمروة ، وهناك نالنى كثير من المشقة والعناء ، فجلست بجوار حلاق أخذ يقص خصلة من شعرى المبعثر عملا بالسنة الشريفة ، ولبثت فى انتظار مطوفى ليأخذنى إلى جبل عرفات

إن اللقاء على جبل عرفات لهو الغرض الأساسى تقريباً للحج ، فالحجاج الذين يفدون إلى جدة متفرقين ، يجتمعون كلهم فى يوم واحد ويحشرون فى صعيد واحد ، وهنا تظهر عظمة الدين الحنيف وحكمته ، فقد كان مجموع الحجاج فوق عرفات لا يقل عن خمسين الفاً ، مع أن مكة بساحتها الشاسعة لا تستطيع أن تأوى مثل هذا العدد الوافر

وجبل عرفات من أجل جبال العالم ، يصـل الماء اليه من « عين زبيدة » فى أنابيب ، وهو عمل عظيم فى ذاته ، لأنه يخفف من متاعب الحجاج للحصول على الماء . وهناك تل يطلقون عليه « جبل الرحمة » به مصـلى كان النبى عليه الصلاة والسلام يصلى فيه

ولقد رأيت الحرس الوهابى يقيم على تلك البقعة ليمنع الحجاج من اقامة الصـلاة بالقرب منها ، كما أنهم يحرمون على الحجاج السجود أمام العمد الحجرية المسندة اليها

والوهابيون يعارضون أشد المعارضة فى تدخين التبغ ، ولكنى رأيت أن هذه العادة تكاد تتلاشى ، وألفيت كثيراً من الناس يدخنون فى الطرق العامة حتى فى الجبل وبجوار المصلى ، كما أبطلوا عادة الخطابة التى كانت تلقى على ظهر البعير

(يتبع) عبد الكريم عرمانوس

ظهر كتاب :

توفيق الحكيم

محمد

ويطلب من : مكتبة الهـــلال بالفجالة بالقاهرة
ومكتبة النهضة بشارع المدابغ بالقاهرة
ومن المؤلف { لجنـــة التأليف والترجمـــة والنشر بشارع الكردانى رقم ٩ بالقاهرة

وثمنه ٢٥ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد